

كشفت أن مدائن صالح كانت أكثر تنظيمًا من البتراء

دراسة فرنسية تؤكد وقوع «الحجاز» ضمن الإمبراطورية الرومانية

□ صنعاء علي سالم

■ كشفت دراسة أثرية عن تنظيـم حضري دقيق عرفته المنطقة المعروفة باسم (مدائن صالح) السعودية. مؤكدة أن المنطقة شهدت استيطاناً حضرياً تعتل بإنشاء مدينة نبطية ذات أهمية إستراتيجية. اتسعت بالتأسيق والنظاد بشكل يعوق ما عرفته مدينة البتراء في الأردن.

وأوضحت الدراسة التي تناولت النتائج الأولية للتحقيقات التي أجرتها البعثة الفرنسية السعودية في موقع الحجر (مدائن صالح) التابعة لمحافظة العلا أن مدينة الحجر أصغر حجماً من البتراء، إلا أن المعثورات التي وجدت في الموقع توضح أنها بنيت تبع نظام حضري دقيق، ولم تكن مجرد منطقة حدودية للقوافل التجارية وتجمعا للعبادة ودفن الموتى كما شاع سابقاً، بل

ضمت أماكن السكن والعبادة والحيوانات، وكانت أكثر تنسيقاً وتنظيماً من البتراء، موهبة بان سكان المنطقة الأتباط كانوا أكثر هيلينية، إذ دلت النقوش القبورية على أشخاص يحملون أسماء إغريقية بونت مراتبهم الوظيفية كما ضمت قبوراً للنساء ذكرت أسمائهن، وتعود النقوش إلى القرن الثالث قبل الميلاد والرابع الميلادي.

وذكرت الدراسة التي نشرتها مجلة «جوليات بمدينة الصادرة عن المعهد الفرنسي للإثار



مدائن صالح

والعلود الاجتماعية بصنعاء في عدها الأخير، أن الاستيطان في الحجر ربما تعفورا أو بحسب مخطط وقدرت وجود الأتباط في المنطقة إلى العام ٢٥ قبل الميلاد، مشيرة إلى أن تاريخ تأسيس الحجر غير معروف، إلا أن نفوذ الأتباط على المنطقة تلى نفوذ الملوك الحياتيين وأخر ملك لحياتي عرف باسم مسعودي.

ولفتت إلى تعيز قبور مدائن صالح عن قبور البتراء، وأوضحت أن ثلث القبور التي عثر عليها في مدائن صالح تعديرت بنقوش

نبطية، تظهر أسماء ملكي هذه الغرف القبورية، وأسماء من يسمح أن يدفنوا في قبورها وصلة قراباتهم بالملكين. كما تضد النقوش أيضا توقيعات الأشخاص الذين عملوا في قلع حجارة هذه القبور والذين تولوا نحتها، وبحسب الدراسة فإن مدائن صالح كانت عبارة عن واحات يتوافر فيها الماء بشكل كاف، لتغذية الأراضي الخصبة التي يعتقد أنها كانت تزرع محاصيل حبوبية تغذي أسواق المنطقة والقوافل العابرة، للزراعة والحيوانات.

وخلصت الدراسة إلى أن الحجر هو الموقع النبطية الأده في أقصى جنوب المملكة النبطية. نافية صحة الرأي القائل بأن الحجاز لم يكن ضمن النظاد الإقليمي الروماني. مشيرة إلى عدد من الآثار منها سحل لاتبسي ونقوش إغريقية عثر عليها في المنطقة، وجاء في الدراسة الحجر مدينة أصغر من البتراء، لكنها تملك احياء ذات وظائف مختلفة (سكن قطاعات دينية وجبانات) محسدة الخصائص والمجال الحضري منقظا بشكل يتجاوز المجال السكني، ويمتد إلى مناطق تتبع المدينة، ولفنت إلى تنظيـم وتنسيق عاليجان تظهرها الخصائص، التي بنيت عليها المدينة ومنها نظام الري والحيوانات.

منوهة بوجود عدد غير محسود من القبور التي عثر عليها، موضحة أن النقوش النبطية على واجهات القبور، ربما تعود إلى الفترة ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الرابع الميلادي. مؤكدة أن استخدام المجال الحضري والجبلي لحنق القبور هو علامة خاصة بالثقافة النبطية، وكان الفريق الفرنسي السعودي ضم متخصصين في الآثار وفروعها وفي الجيوفيزياء، والكتابات، والجيولوجيا، والإنثروبولوجيا، ومختصين بعلوم المياه، والنبات والعمارة، ونقله المعلومات الجغرافية (GIS)، وخبراء في الترميد

التائر بناؤها داخل المدن
وعلى طرق التجارة والدج

الأسيلة..

زاد الخير الذي لا ينضب



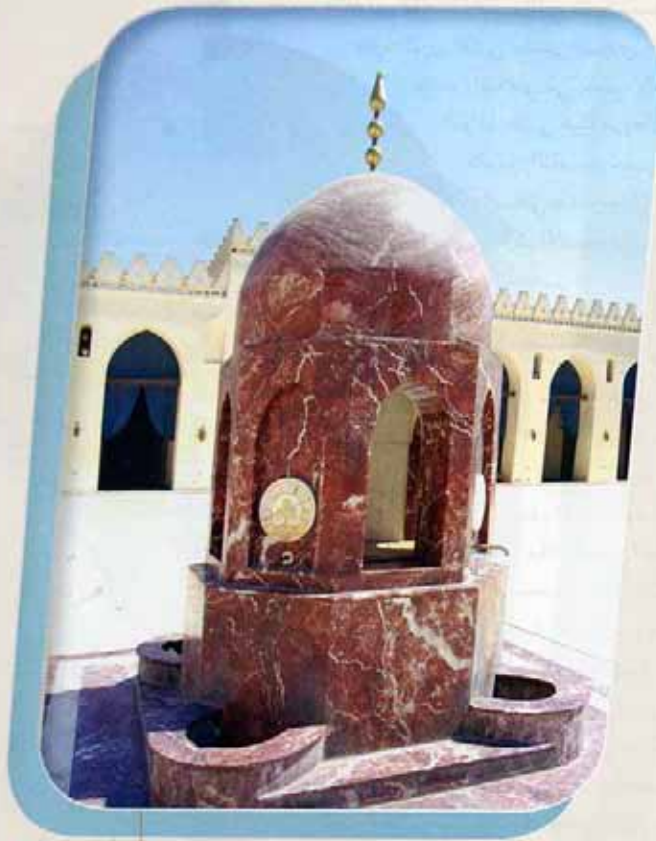
القاهرة، دار الإعلام العربية

جرت عادة المسلمين على اختلاف عصورهم على إقامة مبانٍ خيرية تقرباً إلى الله، وطمعاً في شوابه، ومن ذلك إنشاء الأسبلة التي تروي العطشى في الطرقات، والتي تعزز نهجاً دينياً وهو سقاية عابري السبيل، كما أنها صدقة جارية حض عليها الإسلام. وربما كانت قريش من أولى القبائل العربية التي قامت على أمر السقاية حتى قبل ظهور الإسلام. فقد كانت تؤمن سقاية الحاج، وأصبحت من أهم وظائف أهل مكة.

وتعتبر الأسبلة من أهم العمارات التي تميز فيها المعمار الإسلامي؛ انتشرت مع بداية العصر المملوكي، ثم تطورت في العصر العثماني.. وتعتبر أيضاً من أهم مرافق الرعاية الاجتماعية التي كفلتها الدول الإسلامية؛ فكان السلاطين والأمراء يأمرون مهندسيهم ببناء أسبلة تحمل أسمائهم، وكانوا يشترطون فيمن يتولى رعاية وتنظيف السبيل أن يكون رجلاً ثقة، أميناً، جميل الهيئة، نظيف الثياب، سليم البدن والجسد، ذا قوة ونهضة ومروءة، يسهل الشرب على الناس، ويعاملهم بالحسنى والرفق؛ ليُدخل البهجة على الشاربين.

وصف السبيل

وتتطرق دراسة أثرية معمارية أعدها د. سعيد عاشور إلى وصف مبسط للسبيل فتوضح أنه عبارة عن مبنى مكون من طابقين، الأول عبارة عن بئر محفور في الأرض بها ماء الأمطار أو ماء النيل، يعلوه غطاء أو سقف من الرخام؛ أما الطابق الثاني فيرتفع عن سطح الأرض وتسمى حجرة التسبيل، أو المزملة، لتوزيع الماء على الراغبين، ويقوم المزملاتي «الشخص المعين من قبل منشىء السبيل لرفع المياه من فتحة البئر» برفع الماء بواسطة قنوات تجري تحت البلاط المصنوع من الحجر الصلب، وينتهي الماء إلى فتحات معدة لرفع الماء، وكان الماء يرفع من تلك الفتحات بواسطة كيزان مريوطة بسلاسل مثبتة بقضبان النوافذ، أما طريقة التشغيل فكانت تتم بواسطة بكرة فوق البئر، محمولة على خشبية مريوطة بها حبل، وكان بطرف الحبل سطل «جردل» يرفع به المزملاتي الماء إلى القنوات الموجودة تحت بلاط المزملة، فيجري إلى النوافذ القائمة عند فتحات القنوات، وكان طالب الماء يصعد على سلالم موجودة أسفل كل نافذة إلى حيث يجد الماء، فيحصل على حاجته. كما يقدم المؤرخ الفرنسي «جومار» وصفاً آخر للسبيل..



موضحاً أنه يتكون من ثلاثة طوابق، أحدها الواقع تحت سطح الأرض، عبارة عن خزان واسع تصب فيه الماء، ويرفع الطابق العلوي عدد من الأعمدة الرخامية الجيدة النحت، وزخارف على الحجر والبرونز، وكان يتزود منها الناس بالمياه التي يحتاجون إليها مجاناً في كل المواسم، وينقل إليها الماء بعناء شديد من فرع النيل، أما الطابق الثالث فسمي الكتاب المجاني، واقتصر على تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب، ويصرف عليه من ريع مؤسسة السبيل، ويتم التعليم فيه عن طريق تلقين التلاميذ في وقت واحد القراءة والكتابة.

أشكال وزخارف

وقد أبدع الفنان المسلم في أشكال وزخارف نوافذ السبيل التي كانت تصنع من النحاس النقي، وتمثل نافذة سبيل

لم تقتصر وظيفتها على السقاية بل تعدتها إلى تحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة

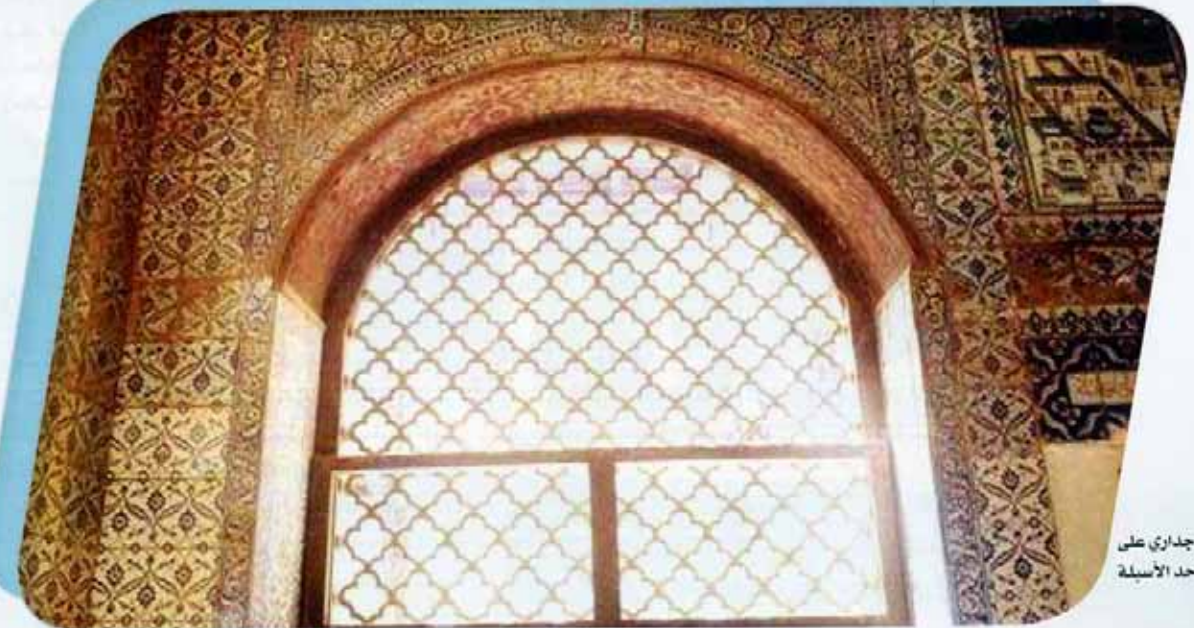


«أم السلطان شعبان» ٧٧٠هـ في القاهرة، وإما سبيل ذو شباكين يبني في أركان المدارس والمساجد، مثل: سبيل الناصر محمد بن قلاوون ٧٢٦هـ، كما يعتبر سبيل «قايتباي» من أجمل الأسبلة التي أنشئت في العصر المملوكي الجركسي ١٤٧٩م، أما سبيل عبدالرحمن كتحدا ١٧٤٤م فيوصف بأنه تحفة فنية، فقد كسيت جدرانه الداخلية ببلاطات القيشاني العثماني ذي الزخارف البنائية والكتابية، وتوجد على أحد حوائطه الداخلية صورة للكعبة المشرفة مشككة بمجموعة من بلاطات القيشاني التركي. ولم تقتصر وظيفة السبيل على توفير المياه للمارة فحسب، بل كان له وظيفة أخرى مهمة وهي التعليم، حيث كان يلحق بالسبيل، وفي الجزء العلوي منه والذي يمثل الطابق الثالث مكتب أو كتاب ليتعلم فيه أبناء المسلمين مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم، وقد استمر الجمع بين وظيفة السقاية والتعلم في بناء الأسبلة منذ فترة الحكم المملوكي.

أسبلة المرأة

وكما شيدت في مدينة القاهرة مئات الأسبلة داخل المدن وعلى طرق التجارة والحج في العصورين المملوكي والعثماني للسلطين والأمراء والأثرياء، أيضاً شيد بعضها على يد سيدات فضليات كان لهن قصب السبق في عمل الخير، ذكرت أسماؤهن صراحة ومنهن:

السلطان قايتباي ٨٧٩هـ/١٤٧٤م من العصر المملوكي النمط التقليدي لتلك النواذف، والذي ظل مستمراً حتى فترة القرن الثاني عشر الهجري - الثامن عشر الميلادي في مصر، وتبدو تلك النواذف على هيئة مربعات تحتل كامل النافذة حتى الجزء السفلي منه، ويعتبر أول بناء مؤكد للأسبلة في مصر في العصر المملوكي، بداية القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي، وكان معظمها من أعمال الأمراء والسلطين وبنائهم، كما بنى الأغنياء الأسبلة صدقة جارية لأنفسهم أو لابنائهم أو لأحد أقاربهم المتوفين، وكان يسمح للمارة من كل الجنسيات والممل باستعمالها ولا ينقطع الماء عنها أبداً، ويعتبر سبيل مدرسة الظاهر بيبرس الذي أنشئ العام ٦٦٠هـ أقدم الأسبلة الإسلامية، والذي شيد في العصر المملوكي، وكانت الأسبلة تبني دائماً ملحقة بغيرها من المباني مثل المدارس والمساجد.. ونادراً ما تبني منفردة.. كما اتخذت هذه الأسبلة عدة هياكل؛ فهي إما سبيل ذو شباك واحد ملحق بمنشأة ذات واجهة واحدة على الطريق العام، كما في مدرسة



نقش جداري على أحد الأسبلة



كان
السلاطين
يامرون ببناء
أسبلة تحمل
أسماءهم..
ويعينون
رجالاً ثقات
لرعايتها



بروزاً في الشارع لتصبح ذات ثلاثة شبابيك للتسبيل.
• سبيل نفيسة البيضا، يقع خلف باب زويلة بالقاهرة القديمة، وهو أحد المكونات المعمارية لمجموعة خيرية أنشأتها السيدة نفيسة البيضا، زوجة مراد بك الكبير سنة ١٢١١ هجرية، ١٧٩٧ ميلادية، وتتكون هذه المجموعة من سبيل يعلوه كتاب ووكالة تجارية بها محلات تُوَجَّر ويستغل ريعها للمصرف على السبيل والكتاب.

ومن أسبلة المرأة بالقاهرة أيضاً سبيل أم الخديوي إسماعيل، وسبيل الست شويكار وسبيل الست عائشة، وسبيل كوسة سنان، وقد وضعت الواقفات الشروط الواجب توافرها فيمن يعملون بالسبيل، والتي أصبحت فيما بعد شروطاً صحية يؤخذ بها فيمن يتولى أعمالاً تتصل بالطعام والشراب، وهي نظافة البدن والثياب، وأن يكون مقبول الهيئة والشكل، وهو ما يؤثر بالإيجاب فيمن يناوله المياه، سليم البدن والجسد من العاهات، ذا مروءة حتى لا يتكاسل عن يطلب الشراب.

• سبيل وقف كلسن، يقع هذا السبيل في عطفة الأنصاري المتفرعة من شارع بورسعيد، وقد شيده كلسن هانم في منتصف القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، وترجع أهمية هذا السبيل إلى أنه يعتبر أول سبيل عثمانى شيده امرأة بمدينة القاهرة، كما أنه يعتبر ثالث سبيل من نماذج الأسبلة العثمانية المفردة، أو المستقلة التي لا تعلوها كتابات.

• سبيل الست صالححة، يقع في ميدان السيدة زينب بالقاهرة، حيث الواجهة الرئيسية، أنشأته الست صالححة حسبما ورد اسمها صراحة بالنصين التأسيسيين أعلى شباكي السبيل، ويرجع تاريخ إنشائه إلى ١١٥٤ هجرية ١٧٤١م.

• سبيل رقية دودو، يقع بشارع سوق السلاح، وقد أنشئ على روح رقية دودو بنت بدوية شاهين بنت الأمير رضوان بك، ويرجع تاريخ إنشاء هذا السبيل إلى سنة ١١٧٤ هجرية - ١٧٦١ ميلادية. ويُعتبر من الأسبلة التي تأخذ واجهة حجرة تسبيله